منهج القرآن الكريم
في توجيه الأمة إلى التوبة

د.محب الدين واعظ
أستاذ مشارك بقسم الكتاب والسنة
-جامعة أم القرى-

فإن الله تعالى خلق البشر وجعله خليفة في الأرض وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، وأسكن أبا البشر وزوجه جنة الخلد تفضلا منه وإحسانا، فما طال مقامهما إلا كان الشيطان وراءهما بوساوسه، ودلاهما بغرور، حتى ظلما أنفسهما، فأنابا إليه وتاب الله عليهما ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(1).

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بصفاته العليا، وهو أعلم به، وأنه قابل توبة العباد ويغفر ذنوبهم، فقال ﷻ ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (2) .

وقد اقترنت صفة التوبة مع صفة الرحمة في كثير من آيات القرآن الكريم، إلا في آية النور فقد اقترنت فيها صفة التوبة مع صفة الحكمة(3)، وأفردت صفة التوبة في سورة النصر فقط فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(4)

وقد قرن الله تعالى صفة التوبة مع الرحمة في توجيه المؤمنين لطلب المغفرة من الله تعالى بعد ظلمهم وأنفسهم ومجيئهم لرسول الله ﷺ واستغفار الرسول لهم فقال ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (5) .

وعندما وجه -البارئ جل شأنه- الوصايا النافعة لضمان المجتمع من الانهيار وحمايته من الانحلال، وقد نهاهم عن السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة، ثم أمرهم بالتقوى فوصف نفسه فقال﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (6)

وموسى الكليم ﷺ حينما وجه قومه إلى التوبة بعد أن اتخذوا العجل وظلموا أنفسهم، وصف ربه بأنه هو التواب الرحيم(7).

وكذا إبراهيم الخليل ﷺ حينما دعا ربه بأن يتوب عليه، وصفه كذلك بهاتين الصفتين فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(8).

هكذا وردت صفة التوبة بانفراد مرة، وكثيرا مقترنة بصفات أخرى مثل الرحيم والحكيم ﷻ.

فكرة البحث:

لقد أثنى الله تعالى على الابن البار الصالح، الذي بلغ الأربعين من العمر، والذي ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(9).

فهذا الابن يطلب من الله تعالى الإلهام لشكر نعمته التي أنعم بها عليه وعلى والديه، ويوفقه للعمل الصالح الذي يرضيه، ويجعل ذريته من الصالحين، ثم يلتجأ إليه تائبا من جميع الذنوب بقوله "إني تبت إليك وإني من المسلمين" فمن كان كذلك فهو من الأبناء البررة، الذين قال عنهم البارئ جل شأنه ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(10) فقول هذا الابن البار- كما جاء في الآية الكريمة السابقة - يتضمن طلبا وتوجها؛ طلبا من الله تعالى يشتمل على طلب الالهام للشكر، والتوفيق للعمل الصالح، وإصلاح الذرية، وتوجها منه إليه تعالى بالتوبة والإسلام له.

وقد كنت أردد هذه الآية مرارا بين الحين والآخر، أعمل الفكر فيها بإمعان، أملا في الشمول مع من يتقبل منهم الله التوابُ الرحيم، التوبةَ والعمل، وقد قيل: زكاةُ العلمِ العملُ؛ فلابد من التوبة ومن الامتثال والعمل، ثم بدا لي أن أقف على منهج القرآن الكريم والخطوات المودعة فيه، لعل الله تعالى أن يوفقنى وأمثالى من المقصرين للتوبة، لأن الإنسان كثير الوقوع في الخطأ، وفي الحديث كل ابن آدم خطّاء، فخير الخطائين التوابون(11).

قال الأمير الصنعاني: والحديث دال على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان، لما جبل عليه هذا النوع من الضعف، وعدم الانقياد لمولاه، في فعل ما إليه دعاه، وترك ما عنه نهاه، ولكنه تعالى بلطفه فتح باب التوبة لعباده، وأخبر أن خير الخطائين التوابون المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ(12).

وقال الرسول ﷺ "والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم"(13).

حدود البحث وخطوات منهجه:

هذا البحث يتضمن بيان الخطوات المستخلصة من القرآن الكريم في عرض التوبة، للمؤمنين حتى يهتدوا إليها، وركزت في الدراسة على من وردت توبتهم بلفظ صريح، دون من يفهم توبتهم من سياق الآية أو سباقها، لأن الغرض من البحث هو بيان منهج القرآن في توجيه الأمة إلى التوبة.

وسرت في البحث حسب الخطوات التالية:

1-جمعت الآيات التي تتحدث عن التوبة والتائبين وعاقبتهم ونحوذلك.

2 -صنفتها حسبما تدل عليه الآيات من معنى وتوجيه وفائدة.

3-اخترت الآيات التي تنبئ عن منهج وطريق وخطوات.

4-رجعت إلى كتب التفاسير المعتمدة بالمأثور والدراية.

5-ذكرت ما تدل عليه الآيات من معنى وبيان وتوضيح.

6-رتبت الخطوات التي تدل المنهج حسب اجتهادي الشخصي كما تراه في ثنايا البحث.

الهدف من البحث:

1-بيان هداية القرآن الكريم، وأنه يتضمن ما يصلح الأمة في العاجل والآجل.

2-بيان منهج القرآن الكريم في عرض التوبة، من حيث الأمر والحث، والثناء والعاقبة، والذين لا تقبل توبتهم.

3- عرض هذا المنهج بأسلوب مبسط وواضح.

4- تذكير المجتمع وتنبيهه للرجوع إلى الله تعالى عن الذنوب بالتوبة النصوح.

هذا وقد كانت فقرات البحث كالتالي:

معنى التوبة:

التوبة في اللغة: كلمة أصلها مكونة من التاء والواو والباء، وهي تدل على الرجوع(14).

والتوبة في الشرع: الرجوع من الذنب، وتاب إلى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا: أناب، ورجع عن المعصية إلى الطاعة، ورجل تواب: تائب إلى الله، والله تواب: يتوب على عبده.

قال أبو منصور: أصل تاب إلى الله ورجع وأناب، وتاب الله عليه: أي عاد عليه بالمغفرة(15).

قال الراغب الأصفهاني: والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة(16).

وقال الطبري: التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم فيه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة(17).

معاني توبة الله على عباده:

سبحان الكريم التواب، الرحمن الرحيم بعباده، العليم الخبير بأفعالهم وأقوالهم، لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فسبحان الذي كلف العباد بالعبادة، بل تحمل الإنسان الأمانة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(18) لكن رزقهم التوبة من الخطايا والإنابة إلى الله وإلى طاعته مما يكره من معصيته، وقبل منهم توبتهم.

فتوبة الله على عبيده:

لها معنيان:

الأول: أن يرزقهم الله تعالى التوبة إليه، ويجعلهم من أهل الإياب إلى طاعته والإنابة إلى مرضاته، ويهديهم إليه بلطف منه لهم لينيبوا ويرجعوا عما هم عليه من

معاصي وخلاف أمر الله ﷻ، وقد قال ابن منظور: وتاب الله عليه: وفقه لها(19)، فهناك الكثير من الآيات التي تدل على ذلك.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(20) قال النسفي: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف(21).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَىٰ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(22) يقول الطبري: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمدا ﷺ والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله، الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم، من النفقة والظهر والزاد والماء، مِنْ بعدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيق مِنْهُمُ عن الحقّ ويشكّ في دينه ويرتاب بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه وإبصار الحقّ الذي كان قد كاد يلتبس عليهم(23).

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(24) قال البيضاوي: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة، ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿إِنَّ للَّهَ هُوَ لتَوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة ﴿لـرَّحِيمِ﴾ المتفضل عليهم بالنعم(25).

وقال تعالى ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(26)

أي: ثم رزقتهم التوبة، وهديتهم بلطف مني لهم، حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليهم من معاصيّ وخلاف أمري، والعمل بما أكرهه منهم إلى العمل بما أحبه، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي(27).

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(28)

يقول تعالى ذكره: ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه من بعد عذابه الذي به عذّب من هلك منهم، قتلاً بالسيف، ويتوب الله على من يشاء من الأحياء، يقبل به إلى طاعته والله غَفُورٌ لذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها، رَحِيمٌ بهم فلا يعذبهم بعد توبتهم، ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم(29).

الثاني: قبول توبة العبد، وأن يؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه(30) قال تعالى: ﴿ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(31) وقد قال ابن منظور: وتاب الله عليه: عاد عليه بالمغفرة، والله تواب: يتوب على عبده(32)، والكثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن توبة الله على عباده بهذا المعنى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (33)

وقوله: ﴿فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي قبل توبتكم، قال ابن جرير: رجع لكم ربكم إلى ما أحببتم من العفو عن ذنوبكم، وعظيم ما ركبتم، والصفح عن جرمكم "إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" يعني الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحبّ من العفو عنه، العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته(34).

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(35).

أي: من تاب ممن صدر منهم الظلم كالسرقة ونحوها، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، أي: يقبل توبته، يقول الطبري: فإن الله ﷻ يرجعه إلى ما يحبّ ويرضى عما يكرهه ويسخط من معصيته، إن الله غفور رحيم، ساترٌ على من تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبَه بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة وتركه فضيحته بها على رؤوس الأشهاد، رحيم به وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم(36).

معنى توبة العباد إلى الله تعالى:

وتوبة العبد إلى ربه: إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيما مما يكرهه ربه(37)، وأصل تاب: عاد إلى الله ورجع وأناب(38)، ويخبرنا الله ﷻ في محكم التنزيل عن الذين تابوا ، وأنابوا إلى الله تعالى من أنبيائه وعباده الصالحين، وأقتصر في هذا البحث على من وردت عنهم التوبة بلفظ صريح، دون من يفهم توبيهم من سياق الكلام أو سباقه، مثل آدم وداوود ويونس عليهم السلام فقال تعالى عن توبة موسى الكليم ﷺ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَىٰ صَعِقاً فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(39).

قال الألوسي: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾ أي لوقتنا الذي وقتناه أي لتمام الأربعين ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِى﴾ أي ذاتك أو نفسك، قال رب العزة والجلال ﴿لن تراني﴾ أي لا قابلية لك لرؤيتي وأنت على ما أنت عليه ﴿وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ أي طور سيناء ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ ولم يفتته التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِى﴾ إذا تجليت لك، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر له على الوجه اللائق بجنابه تعالى بعد جعله مدركاً لذلك ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي مدكوكاً متفتتاً، وَخَرَّ مُوسَى أي سقط من هول ما رأى ﴿صَعِقًا﴾ أي صاعقا وصائحا من الصعقة، والمراد أنه سقط مغشياً عليه، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه قبل، وذلك بعود الفهم والحس ورجوع العقل والفهم إليه بعد ذهابهما عنه ﴿قَالَ﴾ تعظيماً لأمر الله سبحانه ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء، أو من أن يثبت أحد لرؤيتك على ما كان عليه قبلها، أو من أن أسألك شيئاً بغير إذن منك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدام على السؤال بغير أذن ﴿وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، أو بأنه لا يراك أحد في هذه النشأة (40).

وقال الطبري: يقول تعالى ذكره: فلما ثاب إلى موسى عليه السلام فهمه من غشيته، وذلك هو الإفاقة من الصعقة التي خرّ لها موسى ﷺ قال: "سُبْحانَكَ تنزيها لك يا ربّ وتبرئة أن يراك أحد في الدنيا ثم يعيش، تُبْتُ إلَيْكَ من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية، وأنا أوَّلُ المُؤْمِنِينَ بك من قومي أن لا يراك في الدنيا أحد إلا هلك"(41).

هذا .. ويذكرنا القرآن الكريم بتوبة من بلغ الأربعين من الإنسان فيقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيۤ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيۤ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيۤ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(42).

يقول الله -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل هذا الإنسان: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، تبت من ذنوبي التي سلفت مني في سالف أيامي إليك، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ومن الخاضعين لك بالطاعة، المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك(43).

وقال ابن كثير: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا(44).

ثم ذكر الله تعالى في الآية الكريمة التالية عاقبتهم الحسنى، بقبول العمل الحسن، وتكفير السيئات، وإدخالهم الجنة، فهؤلاء المتصفون بما ذكر في الآية الأولى، التائبون إلى الله تعالى المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله ﷻ من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ (45).

أمر الله تعالى عباده بالتوبة:

خلق الله تعالى الإنسان وجعل فيه النفس المتقلبة من حال إلى حال، المنقلبة حسب البيئات وتقلبات الزمن، فلا تثبت على طريقة ولا تستقر على سبيل إلا من رحم، لذا أرسل الله تعالى الرسل الكرام لهداية الناس إلى الطريق المستقيم، ولأنه تعالى يعلم من

عباده الانحراف وحدوث الزلل والوقوع في الخلل، فوجههم إلى الطريق الأقوم، في مثل هذه الأحوال، وبين لهم بأن التوبة هي المنجاة وفيها السلامة والنجاة، فأمرهم الله ﷻ بالتوبة في آيات عديدة من كتابه الكريم، في آيات من سور مكية ومدنية، ولا يخفى بأن الأمر بالتوبة من أهم الأوامر الإسلامية.

فبين الله تعالى في الآيات المبدوءة بها سورة هود المكية، بأنه ﷻ أحكم الآيات القرآنية من الدَّخل والخلل والباطل، ثم فصلها بالأمر والنهي، بأن لا يعبد البشر إلا الله وحده لا شريك له ويخلعوا الآلهة والأنداد، وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يقول للناس: إنني لكم من عند الله نذير، أنذركم عقابه على معاصيه وعبادة الأصنام، وبشير أبشركم بالجزيل من الثواب على طاعته وإخلاص العبادة والألوهة له.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(46)

يأمر الله تعالى ذكره عباده أنِ يستَغفِرُوا رَبَّهُمْ وأن يعملوا من الأعمال ما يرضي الرب ﷻ، ﴿ثُمَّ يتُوبُوا إِلَيْهِ﴾ بإخلاص العبادة له دون ما سواه من سائر ما يعبدون من دونه(47).

وأمره تعالى عباده بالتوبة في الآيات المدنية أصرح، وهم إليها أحوج؛ لأن العبد المؤمن مهما جد واجتهد، ومهما امتثل واعتدل، لا يخلو حاله عن سهو ونسيان، وتقصير في أوامره واقتراف لنواهيه، وانزلاق في ارتكاب المحرمات، أو التعدي على الآخرين، أو يقع في غيبة أو نميمة أو حسد وحقد، وما شابه ذلك، لذا أمر الله ﷻ المؤمنين جميعاً

بالتوبة وأمّلهم بالفلاح إذا تابوا، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لعلكم تفلحون﴾(48).

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ **أمر**، ولا خلاف بين الأمّة في وجوب التوبة، وأنها فرض متعيّن؛ والمعنى: وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى، فلا تتركوا التوبة في كل حال(49).

وقد ابتدأت هذه الآية بالخطاب للنبي ﷺ ليوجه أمته إلى الفضائل الاجتماعية، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي الواردة في الآية الكريمة، ولكنها ختمت بخطاب الله ﷻ المؤمنين ليتوبوا إلى ربهم، قال الألوسي: وتلوين الخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل بطريق التغليب، لإبراز كمال العناية بما في حيزه من أمر التوبة ، وأنها من معظمات المهمات الحقيقية ، بأن يكون ﷻ الآمر بها، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف كما ينبغي ، لا سيما في الكف عن الشهوات.

وقال أيضا: وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الايمان موجب للامتثال حتماً(50)، أي: إن كنتم مؤمنين امتثلوا أمر ربكم وتوبوا إليه عما أنتم فيه من الذنوب والمعاصي، أو المنكرات، أو الانحراف عن جادة الطريق ومنهج الله تعالى.

وقال الثعالبي: والتوبةُ فَرْضٌ على كلِّ مسلمٍ، وهي الندمُ على التفريط في المعصيةِ، والعَزْمُ عَلى تَرْكِ مِثلِها في المستقبل(51).

وقال القرطبي: وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان(52).

وقال تعالى ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلى اللَّه تَوْبَةً نَصُوحا﴾ (53) أي توبة بالغة في النصح، بل تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه (54).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله، تُوبُوا إلى اللَّهِ؛ أي ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله، وإلى ما يرضيه عنكم، تَوْبَةً نَصُوحا، رجوعا لا تعودون فيها أبدا(55).

وقال الشيخ ابن عاشور: أمر المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها لأن ذلك من إصلاح أنفسهم، بعد أن أمروا بأن يُجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزجّ بهم في عذاب النار، لأن اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمى بهم فيها، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم فهُدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم(56).

وقال تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ (57) قال الفراء: هذا أمر بلفظ الاستفهام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ﴾(58) أي: انتهوا، والمعنى: أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(59).

قال ابن كثير: وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه(60).

قال الألوسي: والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ للإنكار، وفيه تعجب من إصرارهم -أي النصارى- أو عدم مبادرتهم إلى التوبة، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقوال الباطلة فلا يتوبون إلى الله تعالى الحق ويستغفرونه بتنزيهه تعالى عما نسبوه إليه عز وجل، أو يسمعون

هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقب ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا(61).

الحث على التوبة:

القرآن الكريم كلام رب العالمين، يعلم ما يصلح البشر ويرشدهم، ويعلم خبايا صدورهم، ومكنون قلوبهم، إذ أمر المؤمنين بالتوبة إلى الله تعالى من ذنوبهم، بل هناك آيات أخرى تحثهم على التوبة علهم يستقيموا على الجادة، فيمتثلوا ويعملوا بتوجيهات ربهم وخالقهم.قال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ متابا﴾ (62)

يحث الله ﷻ المؤمنين إلى التوبة والعمل الصالح في الآية؛ فَمَن تَابَ عن المعاصي التي فعلها بتركها بالكلية والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ يتلافى به ما فرط منه.

أو: ومن خرج عن جنس المعاصي وإن لم يفعله ودخل في الطاعات فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ، ويرجع إليه سبحانه بذلك مَتاباً أي رجوعاً عظيم الشأن مرضياً عنده تعالى، ماحيا للعقاب محصلاً للثواب.

أو: فإنه يتوب إلى الله تعالى ذي اللطف الواسع الذي يحب التائبين ويصطنع إليهم.

أو: فإنه يرجع إلى الله تعالى، أو إلى ثوابه سبحانه مرجعاً حسناً(63).

هذا.. وفي الآيات التي نزلت في حفصة وعائشة -رضي الله عنهما- بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّه فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(64) حثّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ، فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا: أي زاغت ومالت عن الحق، وهو

أنهما أَحَبّتَا ما كَرِه النبيّ ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل، وكان عليه السلام يحبّ العسل والنساء(65).

هذا .. وفي ذكر الله تعالى جزاء الذين يدعون مع الله إلها آخر ويقترفون أنواعا من الذنوب والمعاصي والاعتداء على الآخرين، وأنهم يخلدون في العذاب، ثم التعقيب على ذلك بقوله تعالى ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ (66) حث على التوبة، بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم، أو يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة، وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات (67).

ثناء الله تعالى على التائبين:

وصف الله ﷻ عباده المؤمنين بصفات حميدة أحرى بهم أن يتحلوا بها، لأنه تعالى بشرهم بالفوز العظيم، فقال: ﴿ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدونَ ٱلآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (68).

هذه الصفات نعوت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ٱلتَّـٰئِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش(69)، التائبون الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله(70) ثم ختم الآية بالبشرى للمؤمنين المتصفين بهذه المحاسن المبدوءة بالتوبة .

وفي ذكر الله تعالى صفات الزوجات اللاتي يبدّل الله تعالى رسولَه الكريم ﷺ إن طلق أزواجه، بقوله ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ

قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾(71) ﷺ دليل على ثنائه من اتصف بهذه الصفة الجليلة (التوبة) فقوله ﴿تائبات﴾ راجعات إلى ما يحبه الله منهنّ من طاعته عما يكرهه منهنّ(72)، أو راجعات إلى أمر رسول الله ﷺ تاركات لمحاب أنفسهن(73).

وفي قول الله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ متابا﴾ (74) ثناء وبيان للمكانة العالية للتائبين، فَمَن تَابَ عن المعاصي بتركها والندم عليها، ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحَـاً﴾ يتلافى به ما فرط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة، فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ ويرجع إليه بذلك، مَتاباً مرضياً عند الله، ماحياً للعقاب محصلاً للثواب(75).

والله ﷻ يثني على التائبين ويعدهم بالجزاء الحسن، كما أن للتوبة ثمرات سامية محمودة العاقبة، وسيأتي ذكرها آخر البحث.

دعاء حملة العرش ومن حوله للتائبين:

يقول الله تعالى عن حملة العرش ومن حوله من الملائكة المقربين وعن أعمالهم التي بها يتقربون إلى الله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ، وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(76).

يخبر الله تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، فهم خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم

يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة ﷺ كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم "إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله(77)".

ويخبرنا الله تعالى عن دعاء الملائكة للتائبين، إذ يقولون ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم، ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَـٰلَحَ مِنْ ءابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾، أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَـٰهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ (78)

ثم قال: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي فعلها، أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (79).

وهذه الآيات الكريمات فيهن البشارة العظيمة من الله تعالى لعباده المؤمنين التائبين، بأن الملائكة المقربين يدعون لهم بما يريح خاطرهم في الدنيا والآخرة، فتدعو الملائكة -الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون- بالمغفرة لهم، وإدخالهم جنات عدن، والصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وأن يحفظهم من السيئات التي هي السبب الموجب للعذاب، فما أحرى بالعبد المؤمن أن يتوب إلى الله ﷿، وما أحوجه إلى دعاء الملائكة المقربين.

دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التوبة:

أربعة من الأنبياء الكرام هود وصالح وشعيب وموسى –صلوات ربي وسلامه عليهم– يوجهون أمتهم ويدعونهم إلى التوبة مقدمين الاستغفار مما صدر منهم من ذنوب أو سيئات أو معاصي أو تقصير أو تجاوز أو ظلم، وفي تقديم الاستغفار دليل واضح على أن التوبة لا تأتي إلا بعد اعتراف العبد بتقصيره وذنوبه، فيطلب من العلي الغفار مغفرة ذلك كله، ثم ينيب ويتوب إلى الله تعالى معترفا بعدم العودة إليها، لتكون التوبة نصوحا كما وصفها البارئ جل شأنه.

وفي قصص الأنبياء ﷺ عظات وعبر ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(80)

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين عِبْرَةٌ لأصحاب العقول، وما كان لهذا القرآن أن يفترى ويختلق من دون الله، ﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد(81).

فهذا هود عليه السلام يقول لقومه عاد ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾(82).

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قول هود لقومه: وَيا قَوْم اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ يقول: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم. والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع، لأن هودا ﷺ إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ واتَّقُوهُ وأطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبكُمْ ويُؤَخِّرْكُمْ إلى أجَلٍ مُسَمًّى﴾ (83).

وقوله: ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ﴾ يقول: ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به. ﴿ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارا﴾ يقول: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل قَطْرَ السماء عليكم، يُدِرّ لكم الغيث في وقت احتجتكم إليه، وتحيا بلادكم من الجدب والقحط(84).

وهذا صالح ﷺ المرسل إلى ثمود ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ (85).

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، فقال لهم يا قوم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة، فما لكم من إله غيره يستوجب عليكم العبادة، ولا تجوز الألوهة إلاّ له. هُوَ أنْشأكُمْ مِنَ الأرْضِ وجعلكم عُمَّارا فيها، وأسكنكم فيها أيام حياتكم، ﴿ فاسْتَغْفِرُوهُ﴾ واعملوا عملاً يكون سببا لستر الله عليكم ذنوبكم، وهو الإيمان به وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح، ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ واتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه، إنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه(86).

وشعيب عليه السلام يقول لأصحاب الأيكة: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(87).

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل شعيب لمن أرسل إليهم: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أيها القوم من ذنوبكم -بينكم وبين ربكم- التي أنتم عليها مقيمون، من عبادة الآلهة والأصنام وبَخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ وارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلا أمره ونهيه، ﴿ إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة. وَدُودٌ ذو محبة لمن أناب وتاب إليه يودّه ويحبه(88).

ويقول تعالى عن موسى الكليم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (89)

قال موسى لقومه من بني إسرائيل: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم بالارتداد واتخاذ العجل ربا بعد فراق موسى إياهم، ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من ردّتهم بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به، وأخبرهم أنّ توبتهم من الذنب الذي ركبوه، قتلهم أنفسهم، فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى، من التوبة مما ركبوا من ذنوبهم، إلى ربهم على ما أمرهم به، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ يعني بذلك توبتكم بقتلكم أنفسكم، وطاعتكم ربكم، خير لكم عند بارئكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثواب منه، وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي بما فعلتم مما أمركم به من قتل بعضكم بعضا. وهذا من المحذوف الذي استغني بالظاهر منه عن المتروك، لأن معنى الكلام: فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا

أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتبتم فتاب عليكم، فترك ذكر قوله (فتبتم) إذ كان في قوله: فتَابَ عَلَيْكُمْ دلالة بينة على اقتضاء الكلام فتبتم.

ويعني بقوله: ﴿فتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ رجع لكم ربكم إلى ما أحببتم من العفو عن ذنوبكم، وعظيم ما ركبتم، والصفح عن جرمكم، ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحبّ من العفو عنه. ويعني بالرحيم: العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته(90).

وقت التوبة، ومن الذي يتوب:

ورد في القرآن الكريم أربع آيات محكمات يحدد الله ﷻ فيها وقت التوبة وأنه الاقلاع من الذنب، فثلاث آيات منها مكية، آية الأعراف ثم الأنعام ثم النحل، والرابعة مدنية هي آية النساء(91)، فيقول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (92).

يقول جلّ ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضا الله بإنابتهم إلى ما يحبّ مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط–من بعد سيىء أعمالهم– وصدّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين وتائب على المنيبين بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك، لَغَفُورٌ لهم، وساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، رحيم بهم، وبكلّ من كان مثلهم من التائبين (93).

وفي آية الأنعام تحديد لوقت التوبة، إذ يقول الباريء ﷻ ﴿وَإِذَا جَاءكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (94)

قال الطبري: وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيقرّون بذلك قولاً وعملاً، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: سلام عليكم؛ أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي: قضى ربكم الرحمة بخلقه، ﴿ أنّه مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهالَةٍ ثمّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأصْلَحَ فإنّه غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (95).

وقال ابن كثير: أكرمهم الله تعالى بردّ السلام عليهم، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، أنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ في توبته بأن أتى بشروطها من التدارك والعزم على عدم العود أبداً، ورجع عما كان عليه، وأصلح العمل في المستقبل، فشأنه ﷻ وأمره مبالغ في المغفرة والرحمة له وهو غَفُورٌ رَّحِيمٌ(96).

وآية النحل تؤكد ما سبق إذ يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(97).

وقال الثعالبي: هذه آية تأنيسٍ لجميعِ العالم؛ فهي تتناوَلُ كلَّ كافرٍ وعاصٍ تَابَ من سوءِ حالِهِ، بعد ما تَعدَّى الطَّوْر ورُكب الرأس، وقلَّما يوجَدُ في العُصاة مَنْ لم يتقدَّم له علْم بُحَظْر المعصيةِ التي يُوَاقِع(98).

وهكذا تفيد كل الآيات المكية بأن التوبة من العبد تصدر بعد مقارفة الذنب وارتكاب المعصية، أو الابتعاد عن منهج الله تعالى وطريقه الواضحة، وتبيّن انحرافه أو ضلاله أو وقوعه في المحظور، والوقت نفسه تحدده الآية المدنية إلا أنها تضيف قوله "من

قريب" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (99).

أي التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوء ، ويرتكبون المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة، بجهالة وسفه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل، ثُمَّ بعد ذلك يَتُوبُونَ من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت(100).

إذا وضح بهذا وقت التوبة، وأنها تكون بعد ارتكاب المعصية، وبعد الوقوع في المحظور، أو الانحراف عن الطريق السوي، ففيه الدلالة إلى أن الذي يتوب هو من صدرت منه هذه المخالفات، وزل ووقع في الخطأ.

وقال الطبري: ثم يتوبون قبل مماتهم في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، وقبل أن يغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة وغمّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة، لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم فيه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة، فأما إذا كان بكرب الموت مشغولاً، وبغمّ الحشرجة مغمورا، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبا، ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر العبد بنفسه، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقل الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعة من شروده عن ربه إلى طاعته كان إن شاء الله ممن دخل في وعد الله الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم من قريب (101) وفي الحديث عن النبي ﷺ "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"(102).

قبول الله تعالى توبة عباده:

وُصف الباريء ﷻ بأنه قَابِلِ ٱلتَّوْبِ(103) أي يقبل التوبة ممن تاب إليه وخضع لديه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(104) والله تعالى الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ، ويعفو أن يعاقبه على سيئاته من الأعمال، وهي معاصيه التي تاب منها(105) ، وهو يمتن على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه، ومن كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(106) وقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ "لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح"(107)

وقال عبد الرزاق(108) عن معمر(109) عن الزهري(110) في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إن أبا هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ "لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش" (111) .

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (112) فأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (113) أي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ﴾ المنيبين من الإدبار عن الله وعن طاعته إليه وإلى طاعته(114)، ومما عسى يندر منهم من ارتكاب بعض الذنوب (115) والله ﷻ علم صدور الإساءة من الانسان، فأمره بالتوبة وحضه عليها، ثم وعده بقبول

وتجاوزه عنه مهما كانت ذنوبه، ما لم يكن شركا به "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما(116) ".

ثمرات التوبة وفوائدها:

ما أحسن ما يعمله الإنسان الخطّاء بالليل والنهار، أن يتوب ويؤب إلى ربه الكريم التواب، الذي وعده بالعطايا الجزيل، والثواب الوفير، والتجاوز عن السيئات، وقد وردت الآيات الواضحات ببيان ثمرات التوبة ونتائجها في الدنيا والآخرة.

فمن ثمراتها: الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وتُوبُوا إلى الله جَمِيعا أَيُّهَ المُؤْمِنُونَ لعلكم تفلحون﴾ (117) .

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم، من غَضّ البَصر وحفظ الفرج وتَرْك دخول بيوت غير بيوتكم من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(118) يقول: لتفلحوا وتدركوا طَلِباتكم لديه، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم.

وقال الألوسي: أي لكي تفوزوا بذلك بسعادة الدارين(119).

ومن ثمراتها:

التمتع بالمتاع الحسن:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حَسَناً إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(120).

قال القرطبي: هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش(121).

وقال الطبري: يقول – تعالى ذكره- للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت(122).

وقال النسفي: يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة إلى أن يتوفاكم(123).

قبول العمل الحسن، والتجاوز عن السيئات:

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾(124)

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، هم الذين يتُقبل عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال، فيجازيهم به، ويثيبهم عليه وَيَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِم يقول: ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها في أصحَابِ الجَنَّةِ يقول: نفعل ذلك بهم فعلنا مثل ذلك في أصحاب الجنة وأهلها الذين هم أهلها(125).

تكفير السيئات ودخول الجنان:

قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(126)

قال ابن كثير: وعسى من الله موجبة(127).

وقال الطبري: وقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ﴾ يقول: عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم، ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تجري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ﴾ يقول: وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار﴿ يَوْمَ لا يَخْزِي اللّهُ النَّبِيَّ **محمدا** ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَينَ أيْدِيهِمْ﴾ يقول: يسعى نورهم أمامهم وبأيمَانِهِمْ يقول: وبأيمانهم كتابهم(128).

إبدال السيئات حسنات:

قال تعالى: ﴿ إلاَّ مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (129)

قال الطبري: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معناه: فأولئك يبدّل الله بقبائح أعمالهم في الشرك، محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدله بالشرك إيمانا، وبقيل أهل الشرك بالله قيل أهل الإيمان به، وبالزنا عفة وإحصانا.

قال ابن عباس، قوله:﴿ فأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ قال: هم المؤمنون كانوا قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحوّلهم إلى الحسنات، وأبدلهم مكان السيئات حسنات، وقال أيضا:هم الذي يتوبون فيعملون بالطاعة، فيبدّل الله سيئاتهم حسنات حين يتوبون.

وقال آخرون بل معنى ذلك فأولئك يبدل الله سيئاته في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة.

قال أبو جعفر وأولى التأويلين بالصواب في ذلك: تأويل من تأوله، فأولئك يبدل الله سيئاتهم، أعمالهم في الشرك حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى، وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القبح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه، إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إن فعل ذلك كذلك، أن يصير شرك الكافر الذي كان شركا في الكفر بعينه، إيمانا يوم القيامة بالإسلام، ومعاصيه كلها بأعيانها طاعة، وذلك ما لا يقوله ذو حجا(130).

الإمداد بالمطر:

قال تعالى عن هود عليه السلام ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾(131).

قال الطبري: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل قَطْرَ السماء عليكم يُدِرّ لكم الغيث في وقت حاجتكم إليه، وتحيا بلادكم من الجدب والقحط(132).

عاقبة الذين لم يتوبوا:

ذكر الله عز وجل عاقبة الذين لم يتوبوا في حكايتين في آيتين؛ إحداهما مكية وأخراهما مدنية، فالحكاية التي وردت في الآية المكية، قصة أصحاب الأخدود، الذين أحرقوا

المؤمنين ولم يتوبوا من فعلتهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (133).

قال ابن كثير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي حرقوا ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ ولم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل(134)، وقال الطبري: فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ في الآخرة ولَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ في الدنيا (135).

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة (136) فكأنه قال: إن تبتم عفوت عنكم، وإن لم تتوبوا فلكم عذاب الحريق

والحكاية التي وردت في الآية المدنية بعد أن نهى الله المؤمنين من بعض رذائل الأعمال، فقال ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (137) يقول تعالى ذكره: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه، وكان ابن زيد يقول في قوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: ومن لم يتب من ذلك الفسوق فأولئك هم الظالمون(138).

وقال الطبري: في قوله: ﴿وإِنْ تَوَلَّوْا فإنِي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(139) يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله وترك عبادة الآلهة وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه فأدبروا مولين عن ذلك، فإني أيها القوم أخاف عليكم عذاب يوم كبير شأنه عظيم هوله، وذلك ﴿يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(140).

وقال الألوسي: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي تستمروا على الاعراض عما ألقي إليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة(141) ﴿فإنّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَاب يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ لكن إن استغفرتم وتبتم فستكون العاقبة غير ذلك.

الذين لا تقبل توبتهم:

لقد حدد الله سبحانه وتعالى الوقت لإحداث التوبة وفسح المجال للعبد، ووقت لها ميقاتا يفهم من توبته الرجوع عن كل ما اقترفه بكل صدق وواقعية، وبين لها ميعادا نهائيا إن تعداه لاينفعه توبته ولا رجوعه إن جاء ليتوب، فهيهات ولات ساعة مندم، يقول الله تعالى ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلآنَ وَلاَ ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (142).

أي: وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله، حتى إذا حضر أحدهم الموت، وحشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه، قد أقبلوا إليه لقبض روحه، وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه بشغله بكرب حشرجته وغرغرته، وشاهد الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال وعاين ملك الموت وانقطع حبل الرجاء، قال: إني تبت الآن، في هذا الوقت الحاضر، يقول الله تبارك وتعالى: فليس له توبة، لأنه قال ما قال في غير حال توبة. كما: حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا الثوري، عن يعلى بن نعمان، قال: أخبرني من سمع ابن عمر يقول: التوبة مبسوطة ما لم يَسُقْ، ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ ثم قال: وهل الحضور إلا السَّوْق.

وإيثار (قال) على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبة، ولو أكده ورغب فيه، ولعل سبب ذلك كون تلك الحالة أشبه شيء بالآخرة بل هي أول منزل من منازلها، والدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فأولى الأقوال بالصواب ما ذكره الثوري أنه بلغه أنه في الإسلام، وذلك أن الله جلّ ثناؤه فرق بين أسمائهم وصفاتهم بأن سمى أحد الصنفين كافرا، ووصف الصنف الآخر بأنهم أهل سيئات، ولم يسمهم كفارا ما دلّ على افتراق معانيهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾

عطف على الموصول قبله أي ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء، والمراد من ذكر هؤلاء مع أنه لا توبة لهم رأساً المبالغة في عدم قبول توبة المسوّفين والإيذان بأن وجودها كالعدم، ﴿أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يقول: هؤلاء الذين يموتون وهم كفار، أعتدنا لهم عذابا أليما، لأنهم أبعدهم من التوبة كونهم على الكفر(143).

وأكد الله تعالى عدم قبول توبة الكافر في قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾(144).

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية، قول من قال: عنى بها اليهودَ، وأن يكون تأويله: إن الذين كفروا من اليهود بمحمد ﷺ عند مبعثه بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرا بما أصابوا من الذنوب في كفرهم ومقامهم على ضلالتهم، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد ﷺ، ويراجعوا التوبة منه بتصديق ما جاء به من عند الله.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب، لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت، فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها إذ كانت في سياق واحد. وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر ما أصابوا في كفرهم من المعاصي، لأنه جلّ ثناؤه قال: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ فكان معلوما أن معنى قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إنما هو معنيّ به: لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم، لا من كفرهم، لأن الله - تعالى ذكره- وعد أن يقبل التوبة من عباده، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فمحال أن يقول ﷻ أقبل، ولا أقبل في شيء واحد، وإذ كان ذلك كذلك، وكان من حكم الله في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب، وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التي وعد قبول التوبة منها بقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (145) علم أن المعنى الذي لا تقبل التوبة منه، غير المعنى الذي تقبل التوبة منه، وإذ كان ذلك كذلك، فالذي لا تقبل منه التوبة هو الازدياد على الكفر بعد الكفر، لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره، لأن الله لا يقبل من مشرك عملاً ما أقام على شركه وضلاله، فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح، فإن الله كما وصف به نفسه، غفور رحيم.

إذًا: الذين لا تقبل توبتهم؛ من تاب من عمل السيئات حين حضور الموت، والكفرة الذين ماتوا على كفرهم، والعياذ بالله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى لأنهم لم ينتفعوا من أوقاتهم في الحياة الدنيا التي أفسح لهم المجال وأمهلهم الله تعالى يتمتعون فيها بعقولهم وجوارحهم.

الخاتمة:

الحمد لله الكريم التواب، حذر عباده من أليم العقاب، يصفح ويتجاوز عمن تاب وأناب، والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد بن عبد الله البشير النذير، صلاة دائمة متصلة ما تعاقب الليل والنهار، ومن سار على هديه إلى يوم المعاد.

وبعد: فهذه صفحات معدودات، خلاصة دراسة وافية، ونتيجة غوص في معاني ما تدل عليه آيات القرآن الكريم المتعلقة بالتوبة.

والتوبة النصوح حينما بصدر من العبد بتوفية شرائطها يكون علاجا روحيا وتهذيبا نفسيا، ونقلة اجتماعية، من الانحراف إلى الاعتدال، ومن المعاصي إلى الاكثار من الحسنات، ومن الظلم إلى العدل.

وكان من نتائج هذا البحث:

1-أن القرآن الكريم يأمر عباد الرحمن بالتوبة، ويحضهم عليها، كما يثني على التائبين الراجعين إلى عفو الله ورضوانه، وهو يتقبل منهم توبتهم.

2-أن حملة العرش ومن حوله يدعون للتائبين بالمغفرة ودخول الجنان، وصلاح الأهل والذرية.

3-أن كثيرا من الأنبياء الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - دعوا أممهم إلى التوبة.

4-أن القرآن الكريم حدد وقت التوبة، ومن الذي يتوب، ومتى يتوب.

5-بين القرآن الكريم ثمرات التوبة وفوائدها.

6-بين القرآن الكريم عاقبة الذين لم يتوبوا.

7-بين القرآن الكريم الأصناف الذين لا تقبل توبتهم.

الهوامش

1- سورة البقرة آية رقم 37 .

2-سورة البقرة آية رقم 160 .

3-انظر الآية رقم (10).

4-سورة النصر آية رقم 3 .

5-سورة النساء آية رقم 64.

6-سورة الحجرات الآيتان رقم 11-12.

7-انظر سورة البقرة الآية رقم 54.

8-سورة البقرة آية رقم 128 .

9-سورة الأحقاف آية رقم 15.

10-سورة الأحقاف آية رقم 16.

11-رواه الإمام أحمد في مسنده، 198/3، والترمذي في سننه في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة،273/4، ورواه ابن ماجة في سننه، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، 1420/2، ورواه الحاكم وقال: حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، المستدرك 272/4، قلت: في إسناده علي بن مسعدة، وهاه بعض النقاد، ووثقه آخرون، لكن أورد الحديث ابن حجر في بلوغ المرام، وقال: سنده قوي. سبل السلام 179/4.

12-المصدر السابق للصنعاني.

13-رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبة. 2106/4.

14-انظر معجم مقاييس اللغة 357/1.

15-لسان العرب مادة (توب) 454/1.

16-المفردات في غريب القرآن 76.

17-انظر تفسير الطبري 302/4.

18-سوة الأحزاب آية رقم 72.

19-لسان العرب مادة (توب) /454.

20-سورة النساء آية رقم 24.

21-انظر تفسير النسفي 217/1.

22-سورة التوبة آية رقم 117.

23-انظر تفسير الطبري 54/11.

24-سورة التوبة آية رقم 118.

25-انظر تفسير البيضاوي 178/3.

26-سورة المائدة آية رقم 71.

27-انظر تفسير الطبري 312/6.

28-سورة التوبة آية رقم 27.

29-انظر تفسير الطبري 104/10.

30-ذكر المعنيين الطبري في تفسيره لقوله تعالى (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) وابن منظور في لسان العرب مادة (توب).

31-سورة الشورى آية رقم (25).

32-لسان العرب مادة (توب) /454.

33-سورة البقرة آية رقم 54.

34-انظر تفسير الطبري 288/1.

35-سورة المائدة آية رقم 39.

36-انظر تفسير الطبري 230/6.

37-تفسير الطبري 246/1.

38-انظر لسان العرب مادة (توب) 454/1.

39-سورة الأعراف آية رقم 144.

40-انظر تفسير الألوسي 44/9.

41-انظر تفسير الطبري 55/9.

42-سورة الأحقاف آية رقم 15.

43-انظر تفسير الطبري 17/26.

44-هذا لفظ أبي داود أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره، إلا أن ابن مسعود قال: (وكان يعلمنا كلمات ولم يكن يعلمناهن كما يعلمنا التشهد، سنن أبي داود، باب التشهد 254/1، والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث ابن جريج عن جامع. 397/1، قلت: ورواة اسناد أبي

داود كلهم ثقات، إلا شريك بن عبد الله النخعي، قال فيه ابن حجر: صدوق اختلط، ولعل الحاكم يقصد بالشاهد متابعة ابن جريج لشريك، فيكون الاسناد حسنا لغيره، والله أعلم.

45-انظر تفسير ابن كثير4/158-159، والآية من سورة الأحقاف رقم 16.

46-سورة هود آية رقم (3)

47-انظر تفسير الطبري 11/181.

48-سورة النور آية رقم 31.

49-انظر تفسير القرطبي 12/238.

50-انظر تفسير الألوسي 18/146-147.

51-انظر تفسير الثعالبي 4/316.

52-انظر تفسير القرطبي 18/197.

53-سورة التحريم آية رقم 8.

54-فتح القدير 5/252، وانظر زاد المسير 9/313.

55-انظر تفسير الطبري 28/167.

56-التحرير والتنوير 28/367.

57-سورة المائدة آية رقم 74.

58-سورة المائدة آية رقم 91

59-انظر تفسير البغوي 2/54، وزاد المسير 2/403.

60-انظر تفسير ابن كثير 2/82.

61-تفسير الألوسي 6/208.

62-سورة الفرقان آية رقم 71.

63-انظر تفسير الألوسي 19/50-51.

64-سورة التحريم آية رقم 4.

65-انظر تفسير القرطبي 18/188.

66-سورة الفرقان آية رقم 70.

67-انظر تفسير البيضاوي 4/288.

68-سورة التوبة آية رقم 112.

69-انظر تفسير ابن كثير 2/393.

70-انظر تفسير القرطبي 269/8.

71-سورة التحريم آية رقم 5.

72-انظر تفسير الطبري 164/28.

73-انظر تفسير القرطبي 193/18.

74-سورة الفرقان آية رقم 71.

75-انظر تفسير البيضاوي 228/4-229.

76-سورة المؤمنون الآيات رقم 7 ، 8 ، 9 .

77-هكذا أورده الحافظ ابن كثير بمعناه، ولفظه عند الإمام مسلم (من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثلٍ) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب 2094/4.

ورواه ابن ماجة بمعناه، في كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج 966/2.

78-سورة الطور آية رقم 21.

79-انظر تفسير ابن كثير 72/4 و 73، وتفسير النسفي 67/4.

80-سورة يوسف آية رقم 111.

81-انظر تفسير ابن كثير 499/2.

82-سورة هود آية رقم 52.

83-سورة نوح الآيتان رقم 3-4

84-انظر تفسير الطبري 57/12-58.

85-سورة هود آية رقم 61.

86-انظر تفسير الطبري 62/12-63.

87-سورة هود آية رقم 90.

88-انظر تفسير الطبري 104/12-105.

89-سورة البقرة آية رقم 53.

90-انظر تفسير الطبري 285/1-288.

91-انظر بصائر ذوي التمييز 98/1-99.

92-سورة الاعراف آية رقم 153.

93-انظر تفسير الطبري 70/9-71.

94-سورة الأنعام آية رقم 54.

95-انظر تفسير الطبري 208/7.

96-انظر تفسير ابن كثير 136/2-137.

97-سورة النحل آية رقم 119.

98-انظر تفسير الثعالبي 325/2-326.

99-سورة النساء آية رقم 17.

100-انظر تفسير الألوسي 238/4.

101-انظر تفسير الطبري 302/4.

102-رواه الترمذي في سننه 507/5، في باب فضل التوبة والاستغفار، وقال: حديث حسن غريب، ورواه الإمام أحمد في مسنده، 132/2، وابن ماجة في سننه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، 1420/2، والحاكم في المستدرك 286/4. ويغرغر: بغينين معجمتين، الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة، وبراء مكررة، معناه: ما لم تبلغ روحه حلقومه، فيكون بمنزلة الشيئ الذي= =يغرغر به المريض، والغرغرة: أن يجعل المشروب في الفم ويردد إلى أصل الحلق ولا يبلع. النهاية 360/3.

103سورة المؤمنون آية رقم 3 من قوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ...)

104-سورة الشورى آية رقم 52.

105-انظر تفسير الطبري

106-سورة النساء آية رقم 110.

107-رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، 2104/4-2105.

108-هو: ابن همام بن نافع الحميري مولاهم، أبو بكر الصنعاني، ثقة حافظ مصنف، شهير عمي في آخر عمره، مات سنة إحدى عشرة ومائتين، وله خمس وثمانون سنة، (ع) التقريب 354.

109-هو: ابن راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن، ثقة ثبت فاضل، مات سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن ثمان وخمسين، (ع) التقريب 541.

110-هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الزهري، أبو بكر، الفقيه الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه، مات سنة خمس وعشرين ومائة، وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين (ع) التقريب 506.

111-راجع تفسير ابن كثير 115/4-116، ورواية عبد الرزاق في تفسيره، 191/2، والحديث في صحيح مسلم، ولفظه: (لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم، من أحدكم بضالته إذا وجدها) صحيح مسلم 2102/4.

112-سورة التوبة آية رقم 104.

113-سورة البقرة آية رقم 233.

114-انظر تفسير الطبري 391/2.

115-انظر تفسير الألوسي 124/2.

116-سورة النساء آية رقم 48.

117-سورة النور آية رقم 31

118-انظر تفسير الطبري 125/18.

119-انظر تفسير الألوسي 147/18.

120-سورة هود آية رقم 3.

121-انظر تفسير القرطبي 4/9.

122-انظر تفسير الطبري 181/11.

123-انظر تفسير النسفي 145/2-146.

124-سور الأحقاف آية رقم 16.

125-انظر تفسير الطبري 17/26-18.

126-سور التحريم آية رقم 8.

127-تفسير ابن كثير 393/4.

128-انظر تفسير الطبري 168/28.

129-سورة الفرقان آية رقم 70.

130-انظر تفسير الطبري 46/19-48.

131-سورة هود آية رقم 53.

132-تفسير الطبري 58/12.

133-سورة البروج آية رقم 10.

134-انظر تفسير ابن كثير 497/4.

135-تفسير الطبري 137/30.

136-أورده ابن كثير في تفسيره.

137-سورة الحجرات آية رقم 11.

138-انظر تفسير الطبري 134/26.

139-سورة هود آية رقم 3.

140-انظر تفسير الطبري 182/11.

141-انظر تفسير الألوسي 208/11.

142-سورة النساء آية رقم 18.

143-انظر تفسير الطبري 302/4-304، وتفسير الألوسي 239/4-240.

144-سورة آل عمران آية رقم 90.

145-سورة النور آية 5.